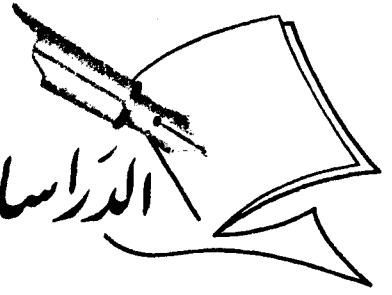


# الدراسات والبحوث



## الطاقة التدميرية للعنف السيكولوجي في الحياة التربوية

\* د. علي أسعد وطفة

يأخذ العنف السيكولوجي صورة خفية متوارية من صور العنف الإنساني، وهي من أكثر صور العنف وتجلياته خطراً وتأثيراً في حياة الفرد وبنيته النفسية. فالعنف السيكولوجي يدمر التكوين النفسي للإنسان بطريقة ذكية وخفية عبر دورات زمنية متباعدة، وهو في طريقة تأثيره ومنهج حضوره يختلف عن العنف الفيزيائي، حيث لا يترك أثاره الواضحة على ضحاياه، ولا يثير الاهتمام أو يلفت الانتباه. وعلى خلاف

العنف الفيزيائي فإن العنف السيكولوجي يحفر مجراه بهدوء، فتغلغل آثاره المدمرة بخبث على مر الزمن، وتدرجياً يستفحل تأثيره ويؤدي، في نهاية الأمر ومع مرور الزمن، إلى تدمير التكوين السيكولوجي للإنسان ووضعه

أساتذة التربية في جامعة الكويت  
الانتقال الإلكتروني للكتاب الإلكتروني

في حالة اغتراب واستلاب واضطراب إلى حد تعطيل الوظائف الحيوية السيكولوجية والعقلية لضحاياه.

وإنه يمكن تشبيهه تأثير العنف السيكولوجي بتأثير مرض السكري الذي يغافل ضحيته بهدوء وسرية ودون أية أعراض واضحة، ثم يستفحل تأثيره، ومع مرور الزمن يعمل على تدمير التكوين العصبي للمريض، فيفقد البصر ويعطل فيه كثيراً من الوظائف الحيوية في الجسد. وبعبارة أخرى يمكن القول إن العنف السيكولوجي أشبه بسرطان خفي يتغلغل في أعماق النفس الإنسانية فيدمر مكوناته، ويستفحل عبر الزمن ليصبح فيما بعد عصياً على المعالجة والاستئصال، فيدفع ضحيته أو مرضاه إلى حافة الهاوية. وكالسرطان إن لم يكتشف مبكراً فإن العنف السيكولوجي يؤدي في نهاية الأمر إلى تحطيم البنيان وتهشيم الأركان النفسية للفرد فيحولته إلى ركام نفسي من الألم والمعاناة والجمود النفسي.

أما وقد أشرنا إلى الطبيعة الخبيثة للعنف السيكولوجي فإن السؤال الذي يطرح نفسه هو كيف يمكننا أن نعرف هذا العنف؟ وكيف نحدد معالمه وآليات اشتغاله وكيفيات تأثيره في النفس الإنسانية؟

وفي تعريف العنف السيكولوجي يمكن

القول إنه لا يوجد -كما هو الحال في المفاهيم الفكرية الحديثة- تعريفاً عاماً جامعاً مانعاً وقاطعاً للعنف النفسي أو السيكولوجي. فالعنف السيكولوجي بوصفه أحد أشكال العنف الذي يأخذ مكانه في نسق العلاقات الإنسانية لا يخرج عن كونه ممارسة مفرطة للسلطة والضبط والهيمنة. ويمكننا أن ومن أجل تعريف هذه الصيغة من العنف النفسي أن نحدد بعض المؤشرات السلوكية والممارسات الأساسية لهذا النوع من العنف:

- رفض الطفل: تمثل عملية الرفض السيكولوجي للفرد أحد أهم عمليات العنف السيكولوجي وأكثرها تواتراً واستخداماً. ويمثل هذا الرفض تجاهلاً لحضور الفرد وإنسانيته وقيمه الحيوية، وهذا بدوره يؤدي إلى شعور مريض من قبل الضحية يأخذ صورة التبخيس الذاتي الذي يعني انحدار الضحية في سلم الوجود الإنساني وتلاشي أهميته في هرم الوجود الاجتماعي. ويتم ذلك من خلال تبخيس رأي الفرد واحتقار أفكاره وتصوراتهم وممارساتهم. ومثال ذلك: معاملة طفل ما على نحو دائم بازدراء واحتقار بصورة مختلفة عن معاملة أخوته وبطريقة تؤدي إلى توليد إحساس مريض لديه بأنه غير مرغوب ومرفوض.

الطفل أو الراشد من اتخاذ القرارات التي تخصه، سجن الطفل في خزانة أو في دولا ب للثياب، أو حبسه منفرداً في غرفة من الغرف، ومنعه من اتخاذ أصدقاء ورفاق، أو منعه من بناء علاقات مع أطفال من عمره أو أصغر منه، وأخيراً منعه من التنقل وحرمانه من وسائل الحركة.

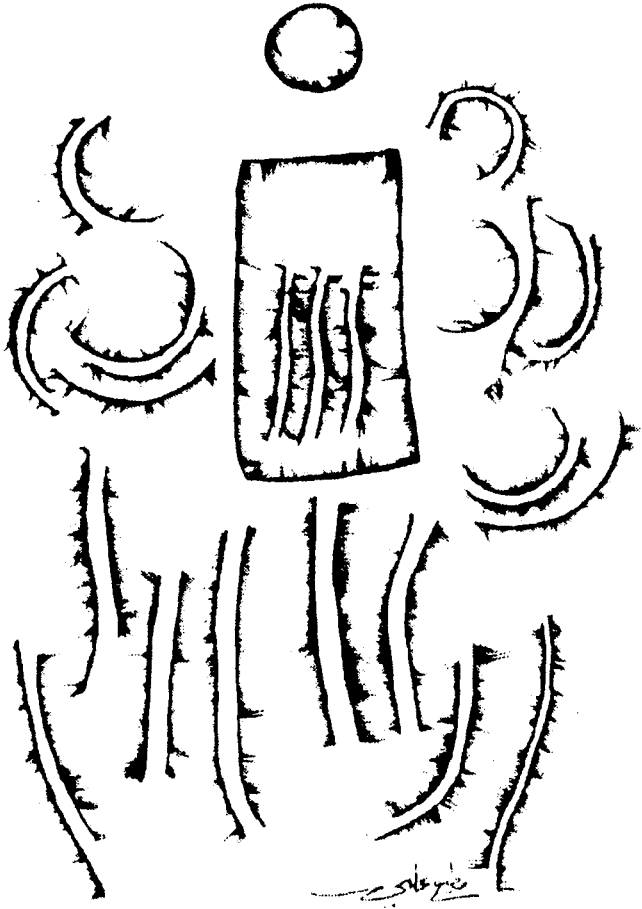
- استغلال الطفل وإفساده: ويتمثل ذلك في إكراه الطفل على قبول أفكار وأداء تصرفات منافية للقانون والعرف والتقاليد والقيم. استغلال الشخص مالياً ومادياً، تعليم الطفل خدمة مصالح شخص آخر يستغله ويخدمه في الآن الواحد. والأمثلة على هذا التنوع من التعسف لا تحصى ومنها: التحرش بالطفل واستغلاله جنسياً، أو أن يسمح للطفل بشرب الخمر وتناول المخدرات.. إلخ.

- حرمان الطفل من الدفء الإنساني: أن يعامل الطفل أو الشخص وكأنه غير موجود ومن غير إعارته أدنى اهتمام. إظهار سلوك اللامبالاة والاهتمام إزاء الطفل، إظهار الطفل وكأنه ليس جديراً بأي اهتمام أو احترام، تجاهل رغبات الطفل وحاجاته في المستويين العقلي والجسدي، ومن أمثلة ذلك: تجاهل المحاولات الاتصالية عند الطفل، حرمان الطفل من العاطفة ومن

- إهانة الطفل: ويتم ذلك من خلال تعريض الطفل للشتيمة والاستهزاء والسخرية ومن ثم معاملته بطريقة تنال من هويته وذاتيته، وثقته بنفسه، فعلى سبيل المثال: تخجيل الفرد واحتقاره في الملأ أمام الآخرين، أو معاملته على أنه أحمق وأبله غير قادر على اتخاذ قراراته بنفسه.

- إرهاب الطفل: وهذا يعني تعريض الطفل لشعور بالرعب والخوف الشديد كأن يعتمد إلى وضعه في الأماكن المخيفة والمرعبة أو تهديده بذلك، ويتمثل هذا الأمر في: الصراخ المفاجئ في وجه الطفل، أو إجبار الطفل على مشاهدة أفعال عنف شديدة موجهة ضد أحد أفراد العائلة أو ضد حيوان أليف محبوب لديه، تهديد الطفل بالترك والطرده والقتل والتعذيب، أو تهديده بقتل حيوان أليف لديه، تهديده بإبعاده ووضعه في مؤسسات الرعاية الاجتماعية ومن ثم مطاردة الطفل بمثل هذه الممارسات المرعبة.

- عزل الطفل: ويتم ذلك عبر تحديد المكان الحيوي الذي يفرض عليه التواجد فيه، تحديد علاقاته مع الوسط الذي يعيش فيه، تقليص حرية الطفل في الحركة ومنعه من النشاط في الوسط الذي حاصر فيه أيضاً. ويمكن أن نسوق الأمثلة التالية: منع



العناية والحب، معاملة الطفل كموضوع وليس كذات إنسانية. وبترافق العنف السيكولوجي بأشكال أخرى متعددة من سوء المعاملة النفسية والأخلاقية. ومهما يكن الشكل الذي يأخذه العنف-أكان عنفاً فيزيائياً إهمالاً أو استغلالاً جنسياً أو مالياً- فإنه يؤثر تأثيراً بالغاً في التكوين النفسي للإنسان أو الطفل. وبعبارة أخرى فإن كل فعل عنيف يتضمن في ذاته على عناصر مكونة للعنف السيكولوجي.

فالعنف النفسي يسير وفق آليات وسيناريوهات متعددة ومختلفة، وهو في حركته يتكرر وينمو عبر الزمن وخلاله، ولا

يمكن للآثار التي يتركها هذا العنف أن تتوقف ذاتياً، حيث يجب التدخل والمعالجة وبناء استراتيجيات تساعد ضحايا هذا العنف على تحقيق التوازن السيكولوجي الذي فقدوه بتأثير العنف، ومن غير ذلك فإن هذا العنف بأثاره يتعاظم ويتفاقم. ومما لا شك فيه أن العنف النفسي يعمل على تدمير مشاعر الطفل الضحية بذاته وكيونته النفسية.

وباختصار، يمكن القول، إن العنف السيكولوجي يدمر عملية النمو النفسي والعقلي عند الأطفال، ويهدم بنيتهم النفسية ويقتل ذكاءهم، ويضعف ذاكرتهم، ويقلص معارفهم وقدراتهم الإدراكية، وينتهك قدرتهم على اليقظة والانتباه والتصور والإبداع، ويضعف حسهم الأخلاقي، ويعيق نموهم الاجتماعي في نهاية المطاف. وليس من الغرابة أن تكون قليلة هي

العلاقات العاطفية مع الأبوين وإلى إضعاف كبير للقدرات العقلية، وهذا ينسحب على مستوى النتائج النفسية والسلوك الاجتماعي.

لقد بينت بعض الأبحاث الجارية في هذا المجال أن التلاميذ الذين تعرضوا في مرحلة الطفولة المبكرة للعنف السيكولوجي كانوا غير ودودين وعصبيين وغير مبالين فيما يتعلق بمن يعنى بهم، وكانوا أقل قدرة على الإبداع والمشاركة والفعالية من الأطفال العاديين الذين لم يتعرضوا لمثل هذا النوع من العنف. وقد بينت هذه الدراسات أيضاً أن هؤلاء الأطفال غالباً ما يكونون عدوانيين وسليبين.

فالعنف الشفوي (صراخ وإهانات)، أو الرمزي (فرقة الأبواب، الصمت، العبوس، الإشاحة بالوجه) الذي يمارسه الوالدان، يمكنه أن يؤدي أيضاً إلى نتائج خطيرة. فالأطفال الذين يتعرضون لهذا النوع من العنف يظهرون درجة عالية من العدوانية والانحراف وعدم القدرة على بناء علاقة مع الآخرين. وهنا يمكن القول إن مشاهدة الطفل أو إحساسه بأن أمه تتعرض للعدوان يشكل نوعاً من العنف والعدوان النفسي على كيان الطفل.

وبالتالي فإن هذا المناخ العدواني يؤدي

الدراسات التي أجريت حول مدى انتشار العنف النفسي في الحياة الاجتماعية، وذلك لأنه من الصعوبة بمكان ملاحظة هذا السلوك الذي يتميز، كما أشرنا، بأنه يجري بطريقة تنفلت من الملاحظة، وبصورة تتأى عن الضبط والرصد والتحديد. فالعنف النفسي يختلف عن أشكال العنف الأخرى بما يلي:

- يصنف العنف النفسي بأنه عنف حديث الاكتشاف وما زال الحديث عن آلياته وآثاره في باكوراته الأولى.

- لا يوجد هناك تعريف عام وشامل لهذا المفهوم ومن الصعب تحديده وتعريفه بدقة علمية متفق عليها.

- من الصعب مراقبة هذا النوع من العنف واكتشافه أو تقييمه والبرهنة على وجوده.

- هناك صيغ عديدة للعنف النفسي التي لم تعلن سابقاً أبداً وهناك محاولات لاستجابات مختلف أشكال هذا العنف وتجلياته.

#### التأثير النفسي للعنف السيكولوجي؛

يمكن للعنف النفسي أن يولد مشكلات كبيرة عند الطفل ولاسيما في المستوى العاطفي والعقلي والانفعالي، وقد يؤدي مثل هذا العنف إلى الاكتئاب وإلى جمود في

فالأب الذي يهدد شريكته أو طفله أو أحد أفراد العائلة بالقتل والتعذيب فإنه بذلك يؤكد سلطته وهيمنته. وبالتالي فإن المرأة التي تخضع لهذا النوع من التهديد النفسي تعيش حالة رهابية وتشعر بعزلتها وضعفها ودونيتها.

إن مظاهر الغيرة والتملك التي يبديها الزوج تجاه زوجته، والأسئلة التي لا تنقطع التي تدور حول الأماكن التي يرتادها أحدهما وفي أي وقت يذهب ويعود؟ يذهب تشكل أدوات للضبط والسيطرة والهيمنة، وهي ممارسات يمكن أن تؤدي إلى تقليص وإضعاف الشعور بالاستقلال والحرية، ومن ثم تولد عند الشريك (زوجاً أو زوجة) الشعور بالعزلة والخوف والانفصال؟ ومن ثم قد ينتهي الأمر بخضوع أحد الشريكين للآخر المتسلط نهائياً في مختلف الأوضاع المالية والإدارية والاجتماعية وهذا يعني نوعاً من الاستلاب الكامل للآخر بكل ما يمتلك عليه من قدرة واقتدار.

هذا ويمكن أيضاً للعنف النفسي أن يؤدي إلى آثار فيزيائية وجسدية وذهانية عند المرأة والطفل في آن واحد: توتر جسدي دائم، أوجاعه في الرأس مستمرة، آلام في الظهر، آلام وإشكالات معوية، وآلام كثيرة أخرى. فالنساء اللواتي تعرضن للعنف

حقيقة إلى تدمير التكوين السيكولوجي للطفل وتهديد هويته ووحدته الذاتية: حيث يمكن للطفل أن يمثل شخصية المهاجم العدوانية ويتماهاى في شخصيته كنموذج تربيوي وإنساني في سلوكه وفي حياته. هذا ويمكن للطفلة الصغيرة التي تعيش في هذه الأجواء الرهابية أن ترى في صورة المرأة الضحية جزءاً متكاملأ من طبيعة الحياة التي تجب أن تعانيتها، أي بمعنى أن مشاهدتها لهذه النماذج العدوانية تجعلها قابلة للاستكانة لمثل هذا النوع من العنف والخضوع له وتبريره نفسياً. وعلى هذا النحو فإن دورة العنف تستمر في دورة متكاملة لا تنتهي حيث تتوالد وتتجدد في سياق اجتماعي لا حدود لممارسة العنف فيه، ومما لاشك فيه أن تأثير العنف السيكولوجي يكون أشد وقعاً وتأثيراً من العنف الفيزيائي والجسدي على المرأة والأطفال على حد سواء.

وهنا يمكن القول إن استمرارية العنف اللفظي -إتهام، صراخ، إهانات، كلمات جارحة، تخجيل- تؤدي إلى نتائج سلبية جداً حول شعور الفرد بقيمته الذاتية ووحدته النفسية وتقديره لوجوده وثقته بنفسه، حيث تكون النتيجة خسران الفرد لقيمه وعدم أهميته والإحساس المرير بوضاعته وبعقدة الذنب لديه.

بصورة مستمرة وعندما يزدريها في الملامح العام. وهو في كل الأحوال لا يأخذ بعين الاعتبار رأي الضحية عندما يتخذ قراراته التي تتعلق بالضحية نفسها، وتلك هي أحد أهم مؤشرات العنف السيكولوجي.

### اكتشاف العنف السيكولوجي:

من الصعوبة بمكان كما أشرنا في مقدمة هذه المقالة اكتشاف العنف السيكولوجي. ومع ذلك فإنه لمن الضرورة بمكان أن يكون الباحث عنه يقظاً وقادراً على تحسس هذه الظاهرة وفهمها. فالمؤشرات الدالة على هذا النوع من العنف يمكنها أن تساعد على معرفة أحوال هذه الظاهرة بتجلياتها المختلفة ويمكن لنا تصنيف هذه المؤشرات الدالة على العنف السيكولوجي في الجدول التالي:

### مؤشرات العنف السيكولوجي أو النفسي

لدى الراشدين	لدى الأطفال
اكتئاب	اكتئاب
انطواء على الذات	انطواء على الذات
فقدان الثقة بالنفس	فقدان الثقة بالنفس
غياب تقدير الذات	غياب تقدير الذات
توتر عصبي	توتر عصبي
عادة الخوف والهلع	عادة الخوف والهلع
الدائم	الدائم

النفسي - كما تبين الدراسات والاستطلاعات الاجتماعية - يحتمل أن، يلجأ إلى معاقرة الخمر والإدمان والمخدرات خمس مرات بدرجة أكبر من هؤلاء اللواتي لا يتعرضن لأي عدوان.

ومع ذلك يمكن القول بأن العنف السيكولوجي عند الكبار قد يكون ناجماً عن تأثير الأفراد أو المؤسسات وأن هذا العنف يظهر في مختلف العلاقات وفي مختلف الأوساط الاجتماعية. والعنف السيكولوجي يمكن أن يمارس من قبل الشريك في الزوجية، أو من قبل طفل كبير على صغير، أو من أحد الأقرباء والمعارف، وأخيراً من قبل شخص يكون موضوع تقدير ثقة.

والكبار الذين وقعوا ضحايا عنف سيكولوجي يمكنهم أن يشعروا بعقدة الذنب وعدم الثقة بالنفس والشيزوفرانيا أو الاكتئاب وغياب القدرة والكفاءة وفقدان الأمل. وإن مؤشرات هذه المعاناة تبرز بفقدان بعض القدرات الذهنية مثل الشيخوخة المبكرة أو تضائل القدرات العقلية وهي شيخوخة ناجمة في الأغلب عن العنف السيكولوجي. فالمهاجم أي من يمارس العنف النفسي غالباً ما ينفجر بالغضب وهو يبدي بوضوح عدم احترامه وتقديره لضحيته وذلك عندما يقاطعها

بعض البلدان حق التدخل العام لحماية الطفل والطفولة ضد العنف النفسي. وفي بعض الدول فإنه يتوجب على أي شخص يعرف أو يشك بأن طفلاً ما يعاني من العنف السيكولوجي يجب أن يبلغ السلطات الأمنية المعنية بحماية الطفل والطفولة أو عليه أن يتصل بالشرطة المحلية. وفي بعض الدول فإن الشخص الذي يهمل إعلام السلطات يمكن أن يتعرض بالمساءلة أمام القانون. وهناك بعض الفعاليات والأعمال التي تصنف كعنف سيكولوجي إجرامي مثل ملاحقة شخص، أو تعمد الاتصال المباشر أو غير المباشر مع شخص بصورة متكررة، أو مراقبة منزله أو مكان عمله أو تهديده بأحد أفراد أسرته، ويضاف إلى ذلك أن هذه الأعمال هي من طبيعة إجرامية، وهذه الأعمال تدفع الشخص المعني إلى الخوف والقلق على أمنه الخاص كما على أمن معارفه والمقربين منه. ولكن هناك بعض أعمال العنف السيكولوجي التي لا تأخذ طابعاً إجرامياً مثل الشتم وفرض العزلة على الآخرين، والتصرفات الصبيانية، واحتقار الآخر وإهماله، وتجاهله وذلك على الرغم من الآثار التي تتركها هذه الممارسة العدوانية. ومما يؤسف له أن اللوائح القانونية في أغلب البلدان العربية لا تنص

انخفاض الدافعية	شعور بالخجل وعقدة الذنب
العدوانية	البكاء المستمر
تقلبات انفعالية مستمرة	تبخيس مستمر للذات
اضطرابات في النوم	سلبية وإذعان مفرط
شكاوى وبكاء غير مبرر	عزلة اجتماعية
سلوك غير طبيعي بالنسبة لعمر الطفل ومستوى نموه	رفض العلاج الطبي الضروري
ميل إلى الانتحار يظهر أثناء المحادثة	عصائية إزاء الأشخاص الذين يقدمون العون والمساعدة
تبعية مطلقة ومستمرة	محاولة الانتحار أو الميل إليه
ضعف كبير في القدرات والإمكانيات	إفراط في تناول الطعام الضار
ضعف الثقة بالنفس والآخرين	رفض الاتصال البصري

### هل يمكن التدخل قانونياً؛

تتضمن بعض الأنظمة القانونية في



على معاقبة ممارسي العنف السيكولوجي ولا توجد نصوص حتى تدل على وجوده في المدونات القانونية.

### أين هو العنف السيكولوجي في التربية

العربية:

قد يكون العنف في حياتنا الثقافية والتربوية هو العصب الأساسي في ثقافتنا الاجتماعية والتربوية، وإذا كان العنف الفيزيائي والجسدي مباحاً ومتاحاً في مختلف أوجه الحياة الثقافية والتربوية فإن الحديث عن العنف السيكولوجي ضد الأطفال يأخذ صورة ترف علمي لا ضرورة له وفقاً لما هو قائم وسائد. فالعنف ضد المرأة وضد الطفولة وضد الإنسان يمثل محاور متقاطعة في الحياة العامة والتربوية وبالتالي فإن العنف السيكولوجي ما يزال لوناً يغيب عن طيف العنف في حياتنا. ولو أردنا في حقيقة الأمر أن نصف مدى حضور العنف السيكولوجي في حياتنا التربوية والأسرية لقلنا بأن لا يمكن الشعور به من

شدة الحضور، فهو أشبه بالضغط الجوي الذي يحاصرنا ويحكم قدرتنا على الحركة ويشد على كل جزيئة في جسدنا فلا نشعر به أو بحضوره. وكذلك هو حال العنف السيكولوجي إذ نظرنا لشدته وكثافته فقدنا القدرة على اكتشافه والشعور به. وهذا يعني أن أحاسيسنا بهذا العنف قد تبلدت وتصلبت وإن نفوسنا أخذت عليه حتى أصبح رداء لها يرتبط بصميمها ووجودها. وقد يكون ذلك الأمر ربما أوعية دفاعية للمحافظة على الوجود النفسي للإنسان لأن الآثار الحقيقية لمثل هذا العنف الضاغط كان يفترض بها أن تضعنا في دائرة جمود ذهني وتصلب سيكولوجي وفي حالات ذهان وانشطار واكتئاب واضطراب يمنع علينا أسباب الوجود والاستمرار في الوجود. ومهما يكن الأمر فإن البحث في هذه الصيغة من العنف واستكشافه والعمل على بناء ثقافة مضادة له وواعية بأبعاده يشكل اليوم ضرورة حيوية لحماية أطفالنا وأجيالنا من كابوس لا يعلى عليه بشدة الخطر.

### المصادر

- علي وطفة، بنية السلطة وإشكالية التسلط التربوي في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٩.
- علي وطفة، الإرهاب التربوي، مجلة العربي، صادرة في الكويت، عدد ٤٦٠، مارس (أذار) ١٩٩٧.

- علي وطفة، التربية إزاء تحديات التعصب والعنف في الوطن العربي، مركز الإمارات العربية للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ٢٠٠٢.
- علي وطفة، الأسس الفيزيولوجية والنفسية للعنف والعدوانية، مجلة المعرفة السورية، مجلة شهرية محكمة تصدر عن وزارة الثقافة في سورية، العدد ٣٩٩، كانون الأول / ديسمبر ١٩٩٦.
- Debarbieux E. Ecole: la violence, ca se maîtrise. in Le Monde des débats. mars 2000.
- EMIN J-C. GORGEON C. Violences à l'école: premières conclusions de l'appel d'offres de recherche DEP-IHESI. Les Cahiers de la Sécurité Intérieure. n°24.2<sup>ème</sup> trimestre 1996.
- Lelievre C. Point de vue: sens et violence à l'école. in Les Cahiers de la Sécurité intérieure. n°15.1<sup>er</sup> trimestre 1994.
- Debarbieux E. Insécurité et violence à l'école. Informations sociaux. n°62. 1997.

